

## فقه اللغة / المرحلة الرابعة/أ - ب / أ.د. ولاء صادق محسن

### خصائص العربية الفصحى

ان العرب حين استصفوا لهجة قريش وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة أثروا فيها مثلما تأثروا بها؛ فصدّق على لهجة قريش ما يصدق على كل اللغات من قوانين التأثر والتأثير، وهي قوانين لا تكاد تتخلف إذا درسنا اللغة على أنها ظاهرة إنسانية . وينبغي ألا ننسى أن لغة قريش كانت -كما قال ابن خلدون: "بعيدة عن بلاد العجم من جميع جهاتها" ، وإن كنا نعترف بأن بعدها عنها لم يحل دون تسرب الألفاظ الفارسية والرومية إليها.

ولكننا عند الحديث عن التعريب، سنرى أن مقدرة لغة ما على تمثيل الكلام الأجنبي، تعد مزية وخصيصة لها إذا هي صاغته على أوزانها، وصبّته في قوالها، ونفخت فيه من روحها.

وكما رَدَدْنَا إلى تميم اعتبارها بدراسة أبرز خصائصها، لن نستنكف عن رد الاعتبار إلى لهجة كل قبيلة لم تطرأ العجمة على أسنتها، ولم تلابس اللكنة الدخيلة ملاحظها، فمثل هذه اللهجات جديرة أن تستنبط منها مزايا لغتنا، وأن يكتشف لديها مدلول مفرداتنا وتراكيبنا.

ومنهج الأقدمين في جمع اللغة علمي دقيق، يعول على الملاحظة والاستقراء، والإفراط في الحيلة أحياناً، حتى لنستطيع أن نكون مطمئنين إلى أكثر ما استنتجوه من خصائص لغتنا التي تجنبوا أخذها عمّن تشوب عربيتهم أية شائبة؛ فقد اقتصر أخذهم اللغة على عرب البادية، وعلى فصاحتهم بشكل خاص. وكثيراً ما كان سيبويه يشير إلى تشدده في تصويب الاستعمال اللغوي برده إلى العرب الذين تُرضى عربيتهم<sup>٣</sup>، أو العرب الموثوق بهم ، أو بعربيتهم ، ولكن سيبويه نفسه كان يرى أن هؤلاء العرب الموثوق بعربيتهم هم عرب الحجاز، فيجئ غالباً إلى ترجيح لغة الحجاز إذا اختلفت اللهجات .

ولم لا تكون لغة الحجاز مقياساً للفصاحة وقد بلغت من الرقي داخل الجزيرة العربية ما أضحناه في الفصل السابق، حين خلت من مستنبح اللغات ومستهن الألفاظ؟ إن الباحث يكاد يرى هذا المقياس صحيحاً لا مغمز فيه، بل بديهياً لا مسوغ لرده؛ ثم يبدو له أن يتساءل: إن كان الأقدمون قد اقتصروا في شواهدهم على عرب البادية، فلماذا رجحوا لغة قريش وما هي من البداوة في شيء؟ إنها على العكس من ذلك، لغة الحضارة بين العرب قاطبة!

نحسب أننا لا يسعنا، للإجابة عن هذه الشبهة، أن ننكر حضرية قريش، ولا أن نجد تأثرها بفارس والروم أممي الحضارة في تلك الحقبة من التاريخ، ونحسب أنه ليس من البحث الموضوعي في شيء أن نرى في استصفاء لغة قريش أن القرآن نزل بها، ففي القرآن من لهجات العرب الأخرى ألفاظ غير قليلة<sup>١</sup>، ولغة القرآن بعد هذا، حين يقال: إنها لغة الحجاز أو قريش، هي اللغة نفسها التي نقلت بها إلينا أشعار العرب وخطبهم

وأسجاعهم، ولقد صادق القرآن هذه اللغة الراقية المهذبة، فزاد من ترقيتها وتهذيبها، فهذا معنى نزوله بلغة قريش.

لكن الناس -في أكثر بقاع الأرض- يملأ القديم قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فيحيطونه بهالة من التقديس: وذلك كان موقف العرب من لهجة قريش؛ فقد تقادم عهدا وهم يعظمونها ويعظمون أهلها، ويعرفون لهم فضلهم، إذ جعل الله قريشاً "قُطَانَ حَرَمِهِ، وَجِيرَانَ

بيته الحرام، وولياته، فكانت وفودج العرب من حجاجها، وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم".

ومن السنن الاجتماعية المسلمة أن اللغة إذا تقادم عهدا بالغ الناس في تقديسها، فلا تعجب إذا رأيت في آثار الباحثين في القرن الماضي، أن مقياس الكمال في اللغات ارتدادها إلى ماضٍ أشد إيجالاً في القدم، حتى ليتمكن القول -في ضوء المقياس: إن اللغة الكاملة المطردة النقية لم تعرف إلا في العصر البدائي، وإن لغاتنا الحديثة المتطورة عن تلك الأصول البدائية ليست إلا تحريفًا وفسادًا.

ولهجة قريش -فوق الذي أحيطت به من مظاهر التقديس- انفردت حقًا بمزايا حفظت لها شخصيتها، وأتاحت لها من أسباب التكامل ما لم يتح لغيره، فبعدها الذي وصفه ابن خلدون عن بلاد العجم من جميع جهاتها، كان حاجزا طبيعياً دون كثرة اتصالها بالأجانب، فلم يدخلها من لكنة الأعاجم ما داخل القبائل المتطرفة التي كانت على اتصال وثيق بمن حولها من غير العرب. قال أبو نصر الفارابي<sup>٣</sup> في أول كتابه المسمى "بالألفاظ والحروف": "كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عمًا في النفس.

والذين عنهم نُقِلَتِ اللغة العربية، وبهم اُقْتَدِيَ، وعنهم أُخِذَ اللسان العربي من قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخِذَ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف؛ ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم.

وبالجملة، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام، لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر، لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدعوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم ...".

وليس لهذه الحيلة في أخذ اللغة، على النحو الذي وصفه أبو نصر الفارابي، إلا تفسير واحد، هو الحيلولة دون تسرب الدخيل إلى العربية، ما لم يطبع بطابع الفصحى تبعًا

لأساليب تعريبها؛ لأن مثل هذا التسرب غير الإرادي وغير المقصود يفسد على الباحثين فهمهم أصالة اللغة وشخصيتها، فقد يستنبط منه خطأ أن من خصائصها أوجهًا لا تلزمها، أو صيغًا لم تجيء على أبنيتها؛ لأنه لما تنبثق عنها، وإنما انتقلت إليها

عن طريق العدوى اللغوية بسبب القرب والجوار، وما أكثر صورها، وأشد أخطارها! ولذلك عدَّ ابن جني امتناعهم من الأخذ عن أهل المدر - كما أخذوا عن أهل الوبر - بـ"ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخلل". ولو علِّم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر".

على أن فرض ابن جني هذا كتب عليه أن يظل فرضًا، لا يزيد على ذلك شيئًا، فما علمنا بأهل مدينة باقين على فصاحتهم، بل رأينا أهل المدن أكثر تعرضًا للحن وفساد اللغة من البدو، ورأينا من البدو الفصحاء أنفسهم من ينتقل لسانه إلى لغة فاسدة؛ فينكر العلماء عليه لغته ولا يأخذون بها، ومن ذلك ما يُحكى من أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبي خيرة، لما سأله فقال: كيف تقول: استأصل الله عِرْقَاتِهِمْ؟ ففتح أبو خيرة التاء، فقال له أبو عمرو: هيهات أبا خيرة لان جِدُّكَ!"

ومذ شاع في البدو اضطراب الألسنة وخبالها، أصبح العلماء يتوجسون خيفة من الذين يدعون الفصاحة، فلا يندعون بالبدوي فيحكموا له بالفصاحة إذا أنسوها منه في وضوح نطقه ورشاقة لفظه فقط، وما كان للبيان وحده أن يكون مقياس الفصاحة، إن لم يرتد إلى أصل ينم عليه، أو قياس يسوغه، وهل تظن ادعاء الفصاحة البدوية والتباعد عن الضعفة الحضرية، أمرين عسيرين على رجل يقضي معظم وقته في البادية، ولا يأتي الحاضرة إلا لمأمًا؟

لم يكن العلماء - مع ذلك - لينخدعوا بمثل هذا البدوي، أو يظلوا عاكفين على كلامه يتلقونه بالقبول، فما أسرع ما كان يفجؤهم منه ما ينال من فصاحته، ويغض من بيانه ويقدم فيه، فإذا هم يرفضون لغته ويمتنعون من التلقي عنه.

ولقد طرأ على ابن جني أحد من يدعي هذه الفصاحة، فميّزَ كلامه أول الأمر تمييزًا حسنًا موقعه في نفسه، إلى أن أنشده يومًا شعرًا له يقول في بعض قوافيه "أشأؤها وأد أوها" فجمع بين الهمزتين، واستأنف من ذلك ما لا أصل له، ولا قياس يسوغه، وأبدل إلى الهمز حرفًا لا حظ في الهمز له، مع أنه "لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغير إحداهما، فكيف أن يقلب إلى الهمز قلبًا ساذجًا عن غير صنعة ما لا حظ له في الهمز، ثم يحقق الهمزتين جميعًا؟! هذا ما لا يبيحه قياس، ولا ورد بمثله سماع!"

ومع هذا التشدد في مقياس الفصاحة، واصطنع العرب لغة قريش للتفنن في القول، والإبانة في التعبير، فدلّ استصفاؤهم أياها على أنها اختارت من كلام العرب أبينه، وراعت أرشقه، واعتمدت أصفاه؛ فكان حقًا ما ذهب إليه الباحثون من المستشرقين

وغيرهم، من أن أهم مزية للعربية حفظت لها شخصيتها بين أخواتها الساميات إنما هي عزلتها عن الشعوب الأعجمية، واكتفاؤها بمقدرتها الذاتية على التعبير، وعلى التمثل والتوليد، وعلى التخير والانتقاء، في موطنها عينه، وبيئتها نفسها، وبين شقيقتها اللهجات الفصحى التي تبادلت معها التأثير والتأثير، بينما كانت الساميات يتفرقن عن موطن السامية الأم، ويتعدون في الوقت نفسه عن الأصالة والصفاء.

ولقد كان لتلك الغزلة نتائج حسنة في محافظة العربية على ظاهرة الإعراب الكامل، ومناسبة حروفها لمعانيها، وثبات أصواتها مع سعة مدرجها، وتنوع صرفها واشتقاقها، وتعدد أبنيتها وصيغها، وكثيرة مصادرها، وغنى مفرداتها بالاشتراك والترادف والتضاد، واستعدادها الذاتي للنحت والتوليد والتعريب.